الخُطْبَةُ: التَّوْبَةُ النَّصُوح

الحمدُ للهِ الغفورِ الرحيمِ، يقبلُ التوبةَ عن عبادِه ويعفو عن السيئات، ويعلمُ ما تفعلون، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ عليه وعلى آلهِ وصحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أيُّها المُسْلِمُونَ: إنَّ موضوعَ التَّوْبَةِ من الأهميةِ بمكانٍ عظيم، ونحنُ جميعًا نحتاجُ إليها دونَ استثناءٍ في كلِّ وقتٍ وحين. وممَّا يدلُّ على عِظَمِ شأنِها وأهمِّيَتِها أنَّ اللهَ تعالى لم يُوجِّه الأمرَ بالتوبةِ إلى الكفَّارِ والفُسَّاقِ والظَّلَمةِ فحسب، بل أمرَ المؤمنينَ بها أيضًا، فقال سبحانه:﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور: 31).فأمرُه سبحانه وتعالى لجميعِ المؤمنينَ بالتوبةِ تنبيهٌ على أنَّه لا يخلو مؤمنٌ من ذنبٍ، فمُستقلٌّ منه ومستكثر.

عبادَ الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنبًا كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبِه، فإن تابَ ونزعَ واستغفرَ صُقِلَ منها، وإن زادَ زادت حتى يُغلَّفَ بها قلبُه، فذلكَ الرانُ الذي ذكرَ اللهُ في كتابِه": ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين: 14) (رواه الترمذي وابن ماجه).

وقال صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التوَّابون" (رواه الترمذي).

أيها الأحبة في الله:

ليس أحدٌ من البشرِ معصومًا من الخطأ، لأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ ضعيف، لكنَّ من رحمةِ اللهِ الواسعةِ أن فتحَ لعبادِه بابَ التوبة، ليمسحَ ذنوبَهم ويغفرَ عيوبَهم.

ولو شاء اللهُ لخلقنا ملائكةً لا يعصونَ، لكنَّه خلقنا بشرًا نذنبُ ونستغفرُ فيتوبُ اللهُ علينا، قال صلى الله عليه وسلم: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لو لم تُذْنِبوا لذهبَ اللهُ بكم، ولجاءَ بقومٍ يُذنبون، فيستغفرونَ اللهَ فيغفرُ لهم" (رواه مسلم).

أيها المسلمون:

التوبةُ بابُ الأملِ وطريقُ الفلاحِ، وهي دأبُ الصالحينَ من الأنبياءِ وغيرِهم، فهذا آدمُ عليه السلامُ قالَ بعدَ أن أكلَ من الشجرة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 23)، فاستجابَ اللهُ له فقال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: 37).

وكانَ نبينا صلى الله عليه وسلم يكثرُ من الاستغفارِ والتوبة، فيقول: "وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً" (رواه البخاري).

وقال ابنُ عمرَ رضي الله عنهما: كنَّا نعدُّ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في المجلسِ الواحدِ مائةَ مرَّةٍ قولَه: "ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنتَ التوابُ الرحيمُ"

عباد الله: من تابَ توبةً صادقةً قَبِلَ اللهُ توبتَه، وغفرَ ذنوبَه كلَّها، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر: 53).

فلا ينبغي للعاصي أن يستعظمَ ذنوبَه فيقنطَ من رحمةِ الله، بل عليه أن يُحسنَ الظنَّ بربِّه، قال الله تعالى في الحديثِ القدسي: "أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بِ" (رواه البخاري).

قال القاضي عياضٌ رحمه الله تعالى: قِيلَ: مَعْنَاهُ ـ أي قولُه تعالى في الحديثِ القدسي: "أنا عندَ ظنِّ عبدي بي" ـ "بالغُفْرَانِ له إذا استغفرني، والقبولِ إذا أنابَ إليَّ، والإجابةِ إذا دعاني، والكفايةِ إذا استكفاني؛ لأنَّ هذه الصفاتِ لا تَظْهَرُ من العبدِ إلَّا إذا أحسنَ ظنَّهُ باللهِ، وقَوِيَ يقينُه " (إكمالُ المُعلِّم، ج 8، صـ 172)

روى الطبراني من حديثِ أبي طَوِيلٍ شَطَبِ المدودِ أنَّه أتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: "أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَدَعْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟" قال صلى الله عليه وسلم: "فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟" قال: "أَمَّا أنا فأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّكَ رسولُ اللهِ" قال صلى الله عليه وسلم: "نَعَمْ، تَفْعَلُ الخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ كُلَّهُنَّ خَيْرَاتٍ." قال الرجلُ: "وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟" قال: "نَعَمْ" قال: "اللهُ أَكْبَرُ !" فما زالَ يُكبِّرُ حتى توارَى".

أيها المؤمنون:

شروطُ التوبةِ النصوح أربعة:

1. الإقلاعُ عن المعصيةِ فورًا، فلا تصحُّ التوبةُ مع الإصرارِ على الذنب.
2. الندمُ على ما سلفَ، لقولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "النَّدمُ توبةٌ" (رواه أحمد).
3. العزمُ على عدمِ العودةِ إلى الذنب، وهي التوبةُ النصوح التي قال الله عنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (سورة التحريم: 8).
4. ردُّ المظالمِ إلى أهلِها إن كانت المعصيةُ متعلقةً بحقوقِ العباد، قال صلى الله عليه وسلم: "مَن كَانَتْ له مَظْلِمَةٌ لأَخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه" (رواه البخاري).

أيها الأحبة في الله:

من تابَ تابَ اللهُ عليه، ومن أقبلَ إلى اللهِ صدقًا أقبلَ اللهُ عليه قبولًا تامًّا. فبادروا إلى التوبةِ قبلَ الممات، وأسرعوا إلى المغفرةِ قبلَ الفوات.

اللهمَّ يا توَّابُ يا رحيمُ، تبْ علينا توبةً نصوحًا، تمحو بها الذنوبَ وتُبدِّلُ بها السيئاتِ حسناتٍ،
اللهمَّ اجعلنا من التوابين، واجعلنا من المتطهرين،
اللهمَّ اغفرْ لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين والمسلمات، الأحياءِ منهم والأموات،
اللهمَّ أصلحْ قلوبَنا، واهدِ نفوسَنا، وبلِّغنا من خيرِ الدنيا والآخرةِ ما ترضى به عنا.

وصلَّى اللهُ وسلَّمَ وباركَ على نبينا محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.